باب الأحاديث الأولى

﴿ سبب ثناء رياض باشا على اللورد كرومر ﴾

أشرنا فى الجزء الماضي الى سخط أحداث الوطنية ، من خطبة رياض باشا فى احتفال المدرسة الصناعية ، واهتمام نبيد الكلام بقول الوزير ، دون عمل الامير ، على أن عمل الامير حكم نافذ واذا أعفى عميد الاحتلال النفوذ الارفع صار ذلك له حقاً رسمياً ، والوزير معذور فى استنجاده اللورد كرومر لحضانة المدرسة من دون الامير وثنائه عليه لانه يعتقد أن نجاح المدرسة متوقف على ذلك واليك البيان بالايجاز :

المدرسة نسبت الى اسم محمد علي لتكون تذكاراً لمرور مئة سنة على تأسيسه هذه الامارة التي يتمتع المتنسبون اليه بسعادتها وقد جعل المشروع تحت رعاية الامير الجالس على كرسي محمد علي الآن فاذا كان منه ومن أهل بيته ومن الأمة المصرية كلها ، كان أن افتتح الامير الاكتتاب بمئة جنيه فلم يزد الذين اكتتبوا من الامراء عن ذلك على ان أكثرهم لم يكتتبوا ، وكان مجموع ماجمع من المال من الأمة أمرائها واغنيائها لايبلغ بضعة آلاف من الجنيهات وقد تبرع الاجانب على قلتهم وعلى كون المدرسة مصرية اسلامية بنحو ذلك والكل قليل . ونستثني ماتبرع به احمد منشاوي باشا فانه صار أمة وحده . والسبب في هذه الخيبة الوطنية افتتاح الامير الاكتتاب بمئة جنيه ولو افتتحه بعشرة آلاف جنيه مثلا لوجد عدد كثير من الامراء والاغنياء يستحي أن يدفع واحدهم أقل من ألف جنيه وكان المال بذلك يكون كافيا لتأسيس المدرسة بمال الوطنيين ، ولو شاء الامير أن ينجح المشروع بماله من النفوذ المعنوي لفعل . أرأيت لو كان لهج امام الوجهاء والاعيان الذين يقابلونه فى الايام التى يسمونها أيام التشريف بتقصير الامة فى هذا المشروع الصناعي الذى هو ركن من أركان الحياة في البلاد أما كانوا يتسابقون الى البذل بسخاء عظيم ، أرأيت لو منح بعض الذين تبرعوا بمبالغ عظيمة كآل محمود فى الرحمانية — ولا نقول منشاوى باشا — برتبة أو وسام عظيم أو بالثناء عليهم في محفله . أما كان يوجد كثيرون يقتدون بهم ؟ بلى ولكن الامير لم يفعل فمن المحتم ان اكتتابه ومسلكه كانا العلة الحقيقية فى عدم نجاح الاكتتاب

وأما اللورد كرومر فهو على كونه قد تبرع من جيبه بمثل ما تبرع به الامير من جيبه قد بذل نفوذه الذي يعلو كل نفوذ في هذا القطر لمساعدة المشروع بالثناء عليه قولا وكتابة وبحمل المالية بل أمرها باعطاء الجمعية أرضا لبناء المدرسة لا يقل ثمنها عن المال الذي جمع من الاكتتاب ويدفع تعويض لأصحاب الاكواخ والحصاص (العشش) التي احتاجت الجمعية الى ازالتها من هناك، ثم بأمر أحد كبار المهندسين الانكليز الذي أسس مدرسة الحكومة الصناعية على مساعدة الجمعية في تأسيس المدرسة بغير أجر فضل أفتشكر مع هذا أن اللورد كرومر كان خيرا لهذا المشروع من جميع أمراء الوطن المحبوب وأغنيائه ووجهائه وجرائده ومن حدث السياسة الوطنية بل ومن جميع أحداثها الذين ينكرون فضله بزعمهم حب البلاد وأمير البلاد الرسمي. ألا نعذر رئيس الاكتتاب للمدرسة الذي بذل جهده لانجاحه فخاب أمله في قومه أن يعهد بالمشروع الى من هو أرجى الناس لابلاغه كماله. أمن الوطنية أن يترك الانسان الطريق الموصل الى نفع الوطن بالفعل، ويلتقط ذكره في القول؟ فيقال إن مثل رياض باشا العامل للوطن قد سرق من الوطنية لانه شكر المحسن للوطن رجاء المزيد، وأولى للمقصر بتقصيره رجاء الاقلاع والتشمير، أو إنه خرج عن الموضوع؟؟

قال المؤيد: ان أكثر الناس قد استاؤوا من خطبة الوزير ويعني أكثر اعضاء جمعية العروة الوثقى اذ لم يجتمع بأكثر الناس ولا بأكثر حاضري الاحتفال فيقال انه يعنيهم. ونحن نظن ان اكثر العقلاء على اعترافهم بفضل هذه الجمعية وهمة اعضائها مستاؤون من تسمية مدارسها بأسماء امراء مصر السابقين — ابراهيم وعباس وسعيد واسماعيل الذين خربت في ايامهم البلاد، وهلكت العباد، وليس لهم أثر علمي يذكر فيشكر وهذه ذرياتهم تتمتع بالاراضي الواسعة من البلاد ولا تسمح لمدرسة ولا لجمعية خيرية بفدان واحد مهما صانتها الجمعية. وما استياء بعض اعضاء الجمعية من خطبة رياض باشا الا كنسبة مدارسها الى اولئك الامراء اي انه أثر العبودية وبقايا الاستبداد السابق. وما كلمة رياض بجارحة لاستقلال الامة كما قيل بل هي أثر للاحساس باستقلالها اذ معنى استقلال الامة هو شعورها التابع لاعتقادها بأن الامراء أجراء الامة لا آلهة لها فلئن كان أكبر وزير في مصر قد أومأ الى ما كان من إهمال الامير لمشروع المدرسة الصناعية إيماء فلقد كان اقل الاعراب والنساء يصرحون بخطئة عمر بن الخطاب وهو على منبر الرسول تصريحا فهذا هو الاستقلال الذي أزاله ملوكنا وأمراؤنا وجعلونا اذل الامم

قال صاحب اللواء أنه شتم رياض باشا اقتداء بالأعرابي الذي قال لسيدنا عمر ولو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، وانما يصح الاقتداء اذا قال الحدث مثل هذا لأمير البلاد أو للسلطان، لا لرجل اعتزل الحكومة والأحكام، وهو يعقته من قبل فاعتبروا يا أولي الأبصار،

المتوسلون المتسولون ودعاة الوطنية

تطوف في اسواق القاهرة وشوارعها في أي وقت شئت من ليل أو نهار، وأطل من شرفات بيتك أو نوافذه مراقبا للناس مستمعا لاحاديثهم، فانك لا تكاد تسمع ذكر الله وذكر نبيه وأوليائه الا من أهل التوسل للتسول الآن يأتي مؤتل (محلف حالف) بسيدنا الحسين أو المتبولي أو غيرهما ممن تقسم بهم العامة. وقد غاب عن ناظري رجل أشمت أغبر أشمط كنت أراه يطوف الشوارع ولسانه رطب يتلجلج بذكر السيدة لا يفتر طرفة عين عن ندائها: ياسيده ياسيده ياسيده ياسيده ياسيده... وأعرف رجلا شيخا أشيب أعمى أجش الصوت ينشد الاماديح المنظومة على طريق المواويل بالاستغاثة بالسيدة: «يا بنت بنت النبي طلي وشوفينا» ـ يا بنت بنت النبي دخلك أنا عيان»..... وأعرف امرأة عمياء كانت تجلس في ظل دارنا وهي تحفظ أسجاعا متناسقة في الدعاء همت غير مرة بأن أنصت اليها وأكتبها عنها. واما الذين يشتركون في عبارة خاصة فكثيرون كالطوافين بكلمة: مليم أجيب بوشاه على أبول سيدنا الحسين والسيده زينب وجدهم الحبيب النبي: اي أطلب مليما (عشر القرش المصري) أشتري به كسرة من الخبز رجاء ان يقبله منكم سيدنا الحسين الخ ـ يقول هؤلاء مايقولون وقلوبهم تطوف في صدور الناس أيها يتأثر بذكر هؤلاء السادات المتصرفين في الاكوان فيرضخ لهم بشيء مما في يده تقربا اليهم والتماسا لبركاتهم ولكنهم لو سئلوا شيئا يبذلونه ابتغاء مرضاة السادات فانهم يقبضون أيديهم لان حظهم من حب السادات أن يأخذوا من الناس على قبولهم لا أن يعطوا تقربا اليهم، ولا غرض لهم من مدحهم وذكرهم الا التأثير في نفوس من يرجى رفدهم من محبيهم

مثل هؤلاء مثل دعاة الوطنية من أحداث السياسة في مصر ـ تطوف البلاد وتحضر الاندية وتغشى السمار وتقرأ الكتب والصحف المنشرة فلا تجد للوطنية داعيا، ولا بذكر جلاء الانكليز عن مصر لاهجا، الا المتسول المتوسل الى حظه باسم الوطنية لعلمه بأن التفريج الحديث قد جعل لهذه الكلمة شرفا كبيرا وذكرا مجيدا فهي تؤثر في نفوس بعض الاغنياء والوجهاء، مالا يؤثر ذكر المتبولي والسيدة زينب

قلوب العامة والنساء ، فكم بذل مجنون بلوطنية البدر من الدنانير ، اذا كان محب الاولياء يبذل القرش والملايم ، وحفظ داعي الوطنية من اللهج بها كحفظ مادح الاولياء هو أن يقول لا أن يفعل ، وأن يأخذ لا أن يعطي ، فاذا كان له منفعة من الامير فلان فهو يجعله عماد الوطنية وعتادها ، وان أمال عمادها واقتلع أوتادها ، وأضاع لاجل شخصه طارفها وتلادها ، واذا خالف هواه سير عالم كامل ، أو زعيم عامل ، فهو يجعل حسناته سيئات ، ويتتبع للطعن به العثرات ، فأمثال هؤلاء الوطنيين يحصرون معنى الوطن في أشخاصهم بدعوى الوطنية كما يحصر بعض كبار المتسولين الدين في شخصه بدعوى الصلاح والولاية ، فمدعي الولاية يرمي من ينكر عليه هوسه ودعواه بالمروق من الدين ، ومدعي الوطنية يتهم من ينكر عليه هوسه ودعواه بعداوة الوطن ، وغرض كل من الفريقين المال والجاه بما يخادعون الناس « تغير شكل ، لأجل الأكل » وتوسل للتسول ، وأكثر الناس غافلون ، وهم في غفلاتهم يرزقون ،

﴿ انتقاد على مقالة العلماء والحاكم ﴾

زارنا أحد كبار القضاة الشرعيين في المحكمة الكبرى بعد صدور الجزء السادس وقال ان ماحدثنا به المرحوم علي باشا مبارك من اقتراح اسماعيل باشا الخديو الاسبق على العلماء تأليف كتاب على نسق القوانين في السهولة الخ على غير وجهه والصواب أن الخديو طلب من العلماء تطبيق القانون على الشريعة وإرجاع أحكامها اليه فأبى الأكثرون وتصدى بعضهم لوضع كتاب في الاحكام الشرعية يوافق القانون الفرنسي في الأكثر ومعظمه من فقه الامام مالك . قال ويقال أن الشيخ محمد مخلوف المنياوي قد أتم هذا الكتاب وقدمه للحكومة الخديوية أو لحاشية الأمير فلم يظهر له أثر . وحدثني بنحو هذا صديق آخر وقال كان من غرض اسماعيل باشا إرضاء أوربا بتقليدها في كل شيء حتى في إبطال بعض الاحكام الشرعية الاسلامية كاباحة تعدد الزوجات المنتقدة عندهم وتحويل الشريعة الى قوانينهم وانه كان يقول لايمكن أن تعمل الأمة في هذا القرن بما وضع للعرب من نحو ثلاثة عشر قرنا تقريبا . ولهذا لم يمكن للعلماء اجابة طلبه . ولا بعد في هذه الاقوال عند العارفين بحال هؤلاء الأمراء وبعدهم عن الدين . وكأن ذلك الأمير المستبد الجاهل كان يرى أن قانون الكرباج الذي وضعه محمد علي وأفسد به بأس الأمة ونزع منها هو ومن بعده روح الشهامة والشجاعة أفضل من الشرع الالهي الذي ارتقى بالأمة العربية الى السيادة على جميع الأمم